خطبة صلاة الجمعة 14/ 6/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(احترام الكبير)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133] أبوهم يعقوب وجدهم إسحاق وأبو جدهم إبراهيم، فلماذا قالوا: إسماعيل، وقدموه على جدهم إسحاق؟!.

الجواب: لأدبهم الذي درجوا عليه من احترام الكبير قدموا إسماعيل على جدهم؛ لأنه أكبر منه واحتسبوه من جملة الآباء، والعم بمقام الأب.

عنوان خطبة اليوم: (احترام الكبير)

أيها الإخوة:

يحترم الإسلام الكبير ويربي أتباعه على احترامه؛ ليربط أواصر الجماعة، ويمتن التواصل بين الأجيال المتعاقبة، أخرج الإمام الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله تعالى عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ**»، قال الإمام الغزالي: (وهذه بشارة بدوام الحياة فليُتَنَبَّه لها فلا يُوَفَّق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر).

فإذا كان هذا الكبير والداً أو رَحِماً فقد جعله الإسلام أوثق أبواب الجنة لرحمه وولده ما احترمه ورعاه وبرَّه، أخرج الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: «الوالِدُ أوسَطُ أبواب الجنة، فإن شِئتَ فأضِع ذلك البابَ أو احْفَظْهُ» وأخرج أبو داود عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أن رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ» قال العلماء: (جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين المسن وحامل القرآن والسلطان، وقدم المسن، كأنه يقول لك وقِّر المسن كما توقِّر السلطان والرئيس والحاكم، وعظِّم المسِن كما تعظم حامل القرآن الحاذق.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم نفى عن قوم لا يوقرون الكبار ولا يجلونهم كمال الإسلام، فعن عبد الله بن عمرو: أن رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا» وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء شيخ يريد النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا» فجعل من الذين لا يوقرون الكبراء عناصر شاذة في مجتمع المسلمين! إذ ليس من المسلمين من لا يحترم كبيرهم.

وكان هو صلى الله عليه وسلم نفسه يحترم الكبير ويوقره ويقول: «أمرني جبريل أن أقدم الأكابر» [الشافعي في الفوائد] قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم» فأسلم.

ومن احترام الكبير تقديمه في وجوه الإكرام والتشريف عامة، فيُقدم الكبير في الشراب ونحوه، قال صلى الله عليه وسلم: «أبدؤا بالكبراء – أو قال – بالأكابر» [أبو يعلى]، ويقدَّم في الكلام، فقد أخرج أصحاب السير عن مُحَيِّصة بن مسعود قال: جئت أنا وأخي عبد الرحمن وأخي حويصة وهو أكبرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أخي عبد الرحمن يتكلم وهو أصغرنا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كبر كبر فسكت، فأردت أن أتكلم، فقال: «كَبِّرِ الكِبْرَ ، أو قال : لِيَبْدَأ الأكبرُ» فسكت، فتكلم أخي حويصة.

وأمر صلى الله عليه وسلم بتقديم الكبير في الإمامة، فقد أخرج مسلم عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَ صلى الله عليه وسلم أَنَا وَابْنُ عَمٍّ لِي فَقَالَ: «إِذَا سَافَرْتُمَا فَأَذِّنَا وَأَقِيمَا، وَلْيَؤُمَّكُمَا أَكْبَرُكُمَا».

قال السادة الحنفية: (الأحق بالإمامة: الأعلم بأحكام الصلاة بشرطِ اجتنابِه الفواحش الظاهرة، وحفظِه من القرآن قدر فرض: أي ما تجوز به الصلاة، ثم الأحسنُ تلاوة وتجويداً للقراءة، لقوله صلّى الله عليه وسلم: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة..**» ثم الأورع أي الأكثر اتقاء للشبهات، والتقوى: اتقاء المحرمات، لقوله عليه السلام: «**إن سركم أن تقبل صلاتكم، فليؤمكم علماؤكم، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم**» ثم الأسن: أي أكبرهم سناً؛ لأنه أكثر خشوعاً ولأن في تقديمه تكثير الجماعة، لقوله عليه الصلاة السلام: «**وليؤمكما أكبركما**» ثم الأحسن خلُقاً (إلفة بالناس)، ثم الأحسن وجهاً (أي أكثرهم تهجداً)، ثم الأشرف نسباً، ثم الأنظف ثوباً، فإن استووا في ذلك كله يُقْرَع بينهم، أو الخيار إلى القوم، وإن اختلفوا اعتبر الأكثر).

ومن احترام الكبير اختيار أفضل الطرق لنصحه إذا أخطأ، رأى الحسن والحسين رضي الله عنهما شيخاً كبيراً يتوضأ فلا يُحسِن الوضوء، فاتفقا على إرشاده، غير أنهما فكّرا في الطريقة الأنسب لتعليمه الوضوء، احتراماً لسِنّه وتقديراً، فتحاكما إلى الشيخ: أيهما يُحسنُ الوضوء؟ وتوضأ كلٌّ منهما أمامه وضوءاً كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وجد الرجل كلاًّ منهما يجيد الوضوء عَلِمَ أنه هو الذي لا يحسِنه، فشكر لهما حسنَ إرشادهما وأعاد الوضوء بطريقة صحيحة.

وانظر إلى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما أراد نصح أبيه قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: 42 - 48] قال الزمخشري: (انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه... كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن)، فمن احترام الكبير اختيار أفضل الطرق لنصحه إذا أخطأ.

وإن من احترام الكبير الرجوع إليه في المهمات، والنزول على قوله في المعضلات، ولاسيما إذا جمع إلى السن الحكمة والتقوى والخبرة، فمن الفضائل التي ورثناها عن آبائنا وجودُ الكُبَرَاء في الأسر والأسواق والأحياء، يرجع أفراد العائلة إلى قول كبيرهم ويصدر أهل السوق عن رأي أكابرهم، وكم

دفع هؤلاء الكبار عن الناس مكروها وكم ساقوا إليهم مرغوباً، قِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرُ صَوَابِكُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ.

– فشاب يريد طلاق زوجته؛ لإساءتها، غير أنه لا يفعل حتى يرجع إلى كبير العائلة، فإذا رجع إليه نصحه نصائح وأرشده إرشادات وأمره بالإبقاء على زوجته، فأبقاها، فدامت حياتهما واستقامت أسرتهما وأنجبا الخيّرين والخيرات.

– وتاجر يريد سفراً؛ لضيق الحال فيستشير كبير السوق فيدله على عمل يغنيه عن الناس ويبقيه بين أهله وولده.

– وأب يضيق ذرعاً بولده المشاكس فيريد هجره وقلاه؛ فيتوسط الجد وهو كبير العائلة ذو الرأي الحصيف والقول السديد لعودة الابن إلى حضن أبيه ورعايته، فيحمي الابن من التشرد والانحراف، والوالدين من لوعة فقد الابن.

إن الرجوع إلى الكبير فضيلة في جوفها فضائل، كيف لا؟! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**البَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ**» [ابن حبان والطبراني والحاكم].

وللمناسبة، أيها الشباب، من الخطأ ألا يكون لأحدكم كبير يسترشد برأيه ويستنير بعقله وخلقه، ويأتمر بأمره ونهيه، وكم جرَّ ذلك على رجال من آلام.

ترى زوجاً غضوباً نَزِقاً يهجر زوجته هجراً يؤذيه ويؤذيها؛ فإذا أردت الإصلاح وسألت عمن يرجع إليه ويهتدي بهديه؟ قيل لك: إن أحداً لا يستطيع أن يأمره وينهاه؛ لأنه لا يستجيب لأحد، فهو مُعتَدٌّ برأيه معجب بقراراته.

ويراجعك بائع، له على زبون مبالغ مالية كبيرة، يريدك أن تتوسط في الأمر فتسأل عن الكبير الذي يرجع إليه هذا الزبون لتتدارس معه الأمر فتعلم أن لا كبير له، فهو بنظر نفسه الكبير الذي لا كبير فوقه والرأس الذي لا رأس له.

وتحرد زوجة وتمضي إلى بيت أختها، فيأتيك الزوج للوساطة فتتحرى لتعلم أن لا كبير لها، ولا يستطيع أحد الأمر والنهي على هذه الزوجة، بل هي معجبة برأيها مغرورة بنفسها لَا تأتمر ولا تنتهي إلا بما يوافق هواها.

قال الإمام الغزالي: (ومن أُعجِب برأيه وعمله منعه ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه، وربما يُعجَب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيُصِرُّ

عليه فلا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويُصرُّ على خطئه،... قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8] وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

فيا أيها الشباب: اتخذوا لأنفسكم كباراً ترجعون إلى مشورتهم، وتصدرون عن آرائهم، تضيفون عقولاً إلى عقولكم وتأخذون مِنْ رَأْيِهِم بالمجّان مَا قَامَ عَلَيْهِم بِالْغَلَاءِ، إذ من لا كبير له لا تدبير له، ومن لا كبير له فليبحث عن كبير.

واعْلَمُوا أَنَّ مِنْ الْحَزْمِ أَنْ لَا تُبْرِمُوا أَمْرًا وَلَا تُمْضُوا عَزْمًا إلَّا بِمَشُورَةِ كبير ذِي رَأْيٍ ناصِحٍ وَعَقْلٍ راجِحٍ وتقوى ظاهرة، قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مِنْ حَقِّ الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إلَى رَأْيِهِ آرَاءَ الْعُقَلَاءِ، وَيَجْمَعَ إلَى عَقْلِهِ عُقُولَ الْحُكَمَاءِ، فَالرَّأْيُ الْفَذُّ رُبَّمَا زَلَّ وَالْعَقْلُ الْفَرْدُ رُبَّمَا ضَلَّ.

أيها الإخوة:

احترام الكبير فضيلة ومكرمة ومادة تربوية إسلامية أصيلة، وإننا لننعم بالخير كلما نمت الأخلاق والفضائل بمقدار ما تنمو الأموال والبنون والبضائع.

وحسبنا أن كبارنا أفضلنا ما حسنت أعمالهم؛ فعن أبي بكرة رضي الله عنه: أَنَّ رجلاً قال: «يا رسول الله، أَيُّ الناس خير؟ قال: **«مَن طال عمره، وحَسُنَ عمله»** [أخرجه الترمذي].

والحمد لله رب العالمين